فـــــــــــــي رحـــــــيـــــلـــــه

قـاسـم مطـرود الـذي عـزف سيمفونية المـوت

المركز الثقافي في لندن يؤبّن قاسم مطرود

كان شعلة من نشاط ويرى في المسرح كلَّ شيء

صلاح القصب

نظّم المركز الثقافي بلندن حفل تأبين لفقيد الثقافة العراقية قاسم مطرود الذي غادرنا إلى جوار ربّه يوم الجمعة المصادف ٠٧ / ٠٩ / ٢٠١٢ بعد رحلة طويلة وشاقة مع المرض الذي لم يمنحه سانحة الحظ لإكمال مشروعه المسرحي على وجه التحديد. وفي خضم هذه الصدمة التي هزّت الأهل والأصدقاء والمعارف أقام المركز الثقافي العراقي بلندن حفل التأبين الذي لم يأخذ طابع العزاءات العابرة التي تمرّ مرور الكرام، وإنما اقترح الدكتور عبد الرحمن ذياب، مدير المركز الثقافي على كاتب هذه السطور "أن لا نودعه كما تودّع العجائز والرجال الطاعنون في السنِ فلاذّ أكبادهم في القرى النائيات"، وإنما نؤبّنه تأبيناً ثقافياً يليق به، ويحتفي بمنجزه الإبداعي، ويسلّط الضوء على مسرحياته الأربع عشرة مسرحية سواء الخمس المنشورة منها أو التسع التي تنتظر النشر، لكن هذا التأبين الثقافي لا يمنع بطبيعة الحال الحضور من أن يعزّوا نجل الراحل البار أنمار قاسم الموجود بيننا غبّ انتهاء هذه الأمسية التأبينية الثقافية المباركة، وأن يشدّوا من أزره وأزر عائلته الكريمة التي نسأل الله جلّ في علاه أن يُلهمهمَ الصبر والسُلوان، وأن يعينهم على هذا المُصاب الجلل الذي ألمّ بهم وبنا، نحن الأسرة الثانية للفقيد الراحل قاسم مطرود الذي رحل جسده عنّا لكن صورته الجميلة، وقَسَماته الآسرة لا تزال تسكن في مُقل العيون، ومُهَج القلوب، مثلما تسكن مؤلفاته المَسرحية في أذهاننا وذاكرتنا الجمعية، نحن القرّاء العراقيين على وجه التحديد، والقرّاء العرب الذين محضوه حُباً من نوع خاص، ومثّلوا بعض نتاجاته الإبداعية على خشبات المسارح العربية.

لقد كان التأبين الثقافي لمسة إنسانية وحضارية سلّطنا فيها الضوء، نحن المعنيين بتجربة الفقيد الراحل قاسم مطرود الإبداعية والمُطلّعَ على مؤلفاته المسرحية، والعارفينَ بآرائه الفنية والثقافية والنقدية، وعلى وفق هذا السياق قررتُ أن أقرأ بين الحضور السيرة الذاتية والإبداعية للفقيد الراحل التي لم تخفَ على الكثير من الحاضرين، كما شكرتهم جميعاً على تلبيتهم هذه الدعوة التأبينية الثقافية الخالصة وتمنيت من الأعماق أن تتفعّل بآرائهم ، وأن تكتمل بأفكارهم النيّرة ووجهات نظرهم السديدة.

احتفالية المركز الثقافي في لندن

اتصلتُ بعدد من أصدقاء الراحل قاسم مطرود لكي يساهموا في تأبينه وقد اعتذر بعضهم عن الحديث لأنه كان مصدوماً أو متأثراً أو غير مصدق بأن قاسماً قد شدّ الرحال إلى أبديته وحتى الزملاء الذين وافقوا غصوا بالعبرات جميعهم في أثناء كلماتهم وربما أكون الشخص الوحيد الذي بكى لوحده قبل ساعتين من بدء التأبين ولهذا فقد حافظتُ على رباطة جأشي، وضبطت نفسي من الغصة المفاجئة أو الانخراط في بكاء ساخن ساعة التقديم! كان أول المتحدثين الأستاذ غانم جواد، مستشار مؤسسة الحوار الإنساني بلندن حيث قال:

"لم يخطر ببالي أبداً أن أقوم بتأبين صديقنا العزيز وأخينا الكريم الفقيد قاسم مطرود. هذه لحظات صعبة لا أجد كلمات مناسبة تعبّر عن الخسارة الفادحة التي مُنينا بها. التقيت بقاسم مطرود هنا بلندن وكان من الداعمين الأساسيين والمشاركين الدائمين في بيت السلام التابع لمؤسسة الحوار الإنساني. كان يحضر في كل الجلسات الثقافية ويقدّم لنا المَشُورة والخبرة في تقديم وإدارة هذه الأماسي الثقافية التي كنا نضطلع بها سوية. في الواقع أنّ مُصابنا أليم ويصعب عليَّ في هذه اللحظات أن أقوم بتأبين أخينا الكريم قاسم مطرود الذي رحل عنا في غفلة من الزمن، بل لم نكن نتوقع هذا الرحيل السريع، فقبل ثلاثة أيام من رحيلة اتصل بي هاتفياً وذكر لي بأنه مشتاق إليّ فوعدته بزيارة قريبة وكان موعد زيارتي صباح أمس حيث شددت الرحال كي أتوجه إلى المستشفى فنادتني زوجتي قائلة إنّ محطة "الفرات" الفضائية تعرض فلماً عن قاسم مطرود وكان ذلك في الساعة الثامنة صباحاً. وبعد أن أنهيت مشاهدة الفلم شكرت فضائية "الفرات" وطاقمها في نفسي لأنهم قاموا بتصوير إحدى ندواته في مؤسسة الحوار الإنساني. ثم هممت بالذهاب إلى المستشفى وقبل أن ألِج السيارة وأشغّل محرّكها لكي أتوجه إلى المكان المطلوب تلقيت رسالة من ابنه أنمار العزيز يفيد بها بأن والده قد انتقل إلى الرفيق الأعلى. حزني إليك يا أبا أنمار كبير.

القاصة ورود الموسوي قالت:

"أقول الآن فقط عَرفَتْ جرّافاتك الحزن بطقوس وحشية كان بطلها الفقد. الآن فقط غلبَ الصمت على الصدى وصدى صمتك لم يبرد بعد حين أجهش كل شيء بالغياب. كيف لي أن أقف مكاني هذا وأنا أخشاه منذ التفاف حبل المرض حولك، لكنّ ما يشفع وقفتي أنكَ كنت تعشق اللغة الجميلة، وتفتنك العبارة لهذا أتيتَ لتسمع ما تُحب؟ كيف لي أن أقول كانَ وأنتَ حاضر لا ينتهي، وماضٍ متجدد اللحظة؟ كيف يمكن أن أمرّ على اسمكَ من دوّن أن أبتسم وأقول قولي المعتاد "هذا الرجل حكاية النار حين تمس الروح فيستحيل كل ما فيها إلى ذهب وشعلة. كيف لي أن أودعكَ ومازال حديثاً عالقاً بيننا، وعملاً مشتركاً كنت تصر دوماً عليه وأنت تشير عليَّ أن لابد أن تكتبي للمسرح؟ أي روح هذي التي أرهقتك يا قاسم؟ يا أبا أنمار لا يمكن لي أن أتخيل المسرح من دون أن أنظرك، أنتَ الذي كنت ترى المسرح في كل شيء، والعالم كان مسرحاً كبيراً أنت بطله. لقد تعامل هذا الرجل المحترف بعقلية الهاوي المبتدئ الذي يتدرب على الكتابة وهذا ما جعل منه خالداً رغم أنف الغياب والمرض والموت. الأغلى قاسم مطرود، كما أناديك دائماً، لقد بكاكَ كل شيء فمثلكَ يستحق البكاء والحزن".

الكاتبة فيحاء السامرائي قالت:

"الذي سأقوله عن قاسم ليس رثاءً، بل أنَّ ما أقوله عنه هو ما أتذكره عن قاسم الإنسان، المثابر، المتواضع الذي لا يمل أحد من حديثه. وأيضاً أتذكر قاسم الإنسان، المثقف، الحالم الذي كان يحلم بالمسرح. الذي أريد أن أقوله هو أنَّ قاسماً لم يرحل، وأنه لا يزال بيننا وبينكم، وفي أحلامكم، وفي محبتكم لبعضكم، وفي محبتكم لوطنكم. هذا هو قاسم مطرود الذي لن يغيب عنا أبداً".

على الرغم من العُجالة التي تميزت بها هذه الأمسية التأبينية إلاّ أنها كانت ناجحة ومستوفية للأهداف التي عقدت من أجلها. فلقد كان همّ المركز الثقافي العراقي بلندن أن يرّسخ تقليد التأبين الثقافي الذي يخدم المثقف الراحل، فمجالس العزاء مهمة كواجب اجتماعي وديني، لكن الأهم منها هو أن نسلط الضوء على الجوانب المعرفية التي تخدم هذا الفقيد أو ذاك وأن ترسخ مكانته الإبداعية في المشهد الثقافي العراقي والعربي على حد سواء.

سيناريو صوري ..

صلاح القصب

((المشهد الأول))
كنت تبحث عن مدارات أفضل
بعيداً عن الغيوم
الكثيفة وأطباق الضباب

((المشهد الثاني))
شعرت بزلزال الجبال وهي
تدعوك للإسراع إلى قمم بعيدة
تحلم حولها الينابيع وكنت تشعر
بأنفاس أنفاسها الرائعة، كيف
أقدم لك أزاهير الغار وروحك
تملأ الهواء

((المشهد الثالث))
"قاسم مطرود" كنت صوتاً
للحب يبحر أمام النوارس
مصباحاً وكنت أنت المصباح لمدنٍ
أبدية.

((المشهد الرابع))
صوت الجمال يبحث عنك مرتجفاً
من اللذة ويصب في الهواء ألواناً
لتضيء أحلاماً تتوارى.

((المشهد الخامس))
"قاسم مطرود" دهراً وأنا أتكلم
مع الأشجار، صوت البحر،
عنفوان الطبيعة، الفراغات
الرطبة/ الستائر التي أسدلت
لتريك فراغها الأبدي، البرك التي
تدمع قرب أشجار موغلة بالألم،
هل ستسحم النوارس وأوراق
الأزاهير بضوء الشمس وسلام
المطر.

((المشهد السادس))
اتجهت إلى شعاع ابحث عن
مجرى يساعد عيني إلى سهول
نضاحة بالماء، ربما سأسمع غناءك
الليلي وحوارات الطيور التي
تحلق حولك شهقت بأجنحة من
ذهب إلى أغاني غروب انتظارك
طويلة.

((المشهد السابع))
"قاسم مطرود" كنت تنظر إلى
موجات حب تصرخ وتضحك
وتجهل نبضات القلب والشموس
المتهاوية وقوانين أبراج المدن
القديمة.

((المشهد الثامن))
كورس ترانيم مغسولة بأمطار
كل الفصول تنتظر عربات البريد
الحديدية بأجنحة شوق والبروج
كانت تستدير كلما ارتفعت
أصوات المنشدين لعربات بريد
حديدية أخرى.

((المشهد التاسع))
دقات الدفوف تبكي الغيوم
التي تبكي تحت المطر وذكريات
مهرجانات مسرحية متداخلة،
قرطاج، القاهرة التجريبي، دمشق
الدولي، المغرب، فوانيس عمان
الدولي، ذكريات متداخلة إعادة
صياغتها الأحلام مرة ثانية.

((المشهد العاشر))
"قاسم مطرود" ازدحمت مدنك
بأسئلة الموسيقى، والأبواب
الزجاجية التي أغرقها المطر كنا
نراك من خلالها، والروح غارقة في
الدموع ودقات المطر تتكاثف في
كل لحظة على سطوح الزجاج عبر
أمواج المطر وهبوب العواصف
التي تغني لك بلا توقف.

معـنا مـا دام قد وهب لفنه كل هذه الحياة

المسـرحـي العـضـوي الـــذي فـقـدنـاه

عقيل أبو غريب

لم يمنحنا القدر الكثير من الوقت لكي نرتق ما تصدع وما وقع من صدأ الذاكرة .. الذاكرة المعبأة بالحزن على طول الخط ، لم يمنحنا القدر سوى ضياع الأمنيات وفقدان من نحب واحداً تلو الآخر، تمنينا في لحظة لو أننا لم نكن نعرفهم حتى لا نسمح لوجع الذاكرة أن يتسلل عبر نوافذ الحب المفتوحة للآخرين على الدوام ولا طاقة لنا بهمَ الفراق وخاصة من ترك لنا نهرا من الوجد لنخوض في غمراته.

استميحكم عذرا أيها الأصدقاء لأدخل المنطقة المحظورة من الذاكرة والتي لا يريد أحد منا تجاوزها .. فبرغم قسوة الأيام ومرارة الحرب التي عشناها ، كان لكل منا قلب يخفق فتعلمنا الحب بأبجديته الأولى في معهد عجّ بالمبدعين الصغار الذين لم يبلغوا الحنين بعد فيؤرقهم صوت أم كلثوم وتجرحهم قصيدة لمحمود درويش يؤديها مارسيل خليفة بحكمة وشجن يصرون على الحرية كإصرارهم على الحياة (معهد الفنون الجميلة) ذلك الكائن الخرافي الذي تخرج منه العديد من المبدعين الذين غيروا خريطة الفن في عموم الوطن الكبير ومنهم الراحل المبدع قاسم مطرود، إن لألمنا القديم حلاوة الحب وحلاوة الانتصار على ذواتنا، منذ الرضعة الأولى أو البذرة الأولى وربما كانت الخطوة الأولى التي وضعنا أرجلنا فيها على الطريق الصحيح كنا مزيجا متجانسا من هوس الحب والمتعة والمعرفة والجنون والصعلكة والإبداع، لم نندم على يوم مر ونحن فوق خشبة المسرح.. نعم جلسنا بكل حرص نستمع إلى أول محاضرة في المسرح من رجل فرعوني اسمه (حسين مليس) ليدخلنا في دوامة عقدة اوديب ومعنى التطهير وأغنية الماعز ويوربيدس وسوفوكليس وارستوفانيس لم يكن أستاذا بالنسبة لنا ولكنه كان أشبه بإله فرعوني هجم علينا بسلاح المعرفة والمصطلحات المسرحية التي لم نفهم منها شيئا وحسبنا انه يتحدث بلغة غير لغتنا وحين سألناه أجاب : إن هذه هي لغة المسرح وعليكم تعلمها، وعلى حين فجأة قفز زميلنا الراحل قاسم مطرود متطوعا ليتصدى لتجربة التحدي في إيصال المعلومة للجميع وقد اخذ على عاتقه مراجعة ما كان يعطي لنا الأستاذ من محاضرات في تاريخ المسرح وهو مصر على أن يتواصل معنا في مدنا بالمعلومات والمصادر الجديدة ويأتي بها إلى القسم الداخلي ليدير جلسة مناقشة ما مطلوب منا في المحاضرة لليوم التالي وتكررت هذه العملية مرات عدة وتوسعت بعد أن عمت الفائدة الجميع وصار اغلب الطلاب يناقش ويبحث، ونادرا ما نجد أحدا يسكت دون مناقشة الأستاذ إلا من كان غائبا عن محاضرات النقاش في القسم الداخلي، التي كان يقدمها لنا الراحل مجانا وعلى طبق من ذهب .. ويبدو كانت هذه رسالته منذ الأيام الأولى وهي أن لا تكون المعرفة حكراً على احد ولكن للجميع، إذاً فهو حاضر معنا ما دام قد وهب لفنه كل هذه الحياة.

بشار عليوي

قليلون جداً ، أُولئك القادرون على صنع الحياة وتدجيجها بكل ما هو معرفي وإنساني كقاسم مطرود ، فمُنذ بواكيرهِ الأولى ومرجلهُ المعرفي المتوافر على خزينٍ هائل من الكمِ النوعي الإنساني أولاً والمعرفي ثانياً ، يضخ لنا مُدركات ومفاهيم جديدة تثقيفية في عالم المسرح ، فقد كانَ ناقداً مسرحياً يُشار لهُ بالبنان، فضلاً عن كونه يُعد من أبرز كُتاب المسرح العراقيَ المُعاصر وممن كان لهم فضل كبير في نشر الثقافة المسرحية العراقية والعربية من خلال تأسيسه وإدارته لموقع (مسرحيون) هذا الموقعَ الذي عرفَ الآخر بمسرحنا العراقي وبنتاجات مُبدعيه، ولن أنسى كلمات قاسم خلال الإحتفاء بهِ والذي أُقيم في مبنى المسرح الوطنيَ حينما قال لنا (إن كُنتم حريصون على تعريف الآخر بكم ، فعليكم بـ" مسرحيون ") . وبالفعل فإن ما يُنشر في واحة لجميع المسرحيين كما أسماها الراحل من أخبار ومُتابعات ونصوص مسرحية تجد لها صدى واسعا في أوساط المسرحيين العرب وغيرهم بالإضافة الى توفير مساحة مجانية تتصف بالحرية فيما يُنشر فيها ، للمسرحيين العراقيين ، فكم من نص مسرحي كانت (مسرحيون) السبب في تبنيهِ من قبل المسرحيين في البُلدان الأخرى ويُقدمونهُ على خشبة المسرح ، ونحنُ نعي تماماً حجم الجهد المبذول مادياً ومعنوياً والتفرغ التام لإدارة موقع مسرحي ألكتروني بهذا الحجم والسعة ، حينما نعلم أن (قاسم) كان يتحمل هذه المسؤولية يُغلفها حُبه الصميمي لبلدهِ ولزملائه المسرحيينَ العراقيين يدفعهُ الإيثارَ الذي كانَ يتحلى بهِ ، لذا كان قاسم مسرحيا (عضوياً) ساهم مُساهمة فاعلة ومؤثرة في مسيرة المسرح العراقي المعاصر ، ناقداً وكاتباً ومُخرجاً مسرحياً رُغمَ أنهُ كان في غُربته التي تكفلت عاصمة الضباب بها لسنوات طويلة . وحتى في سنوات المحنة التي تعرض لها ، سنوات المرض وصراعهُ معهُ وحتى ساعاته الأخيرة ، آثرَ قاسم إلا أن يبقى مؤثراً في المشهد . وإذ نتصفح سيرته في الحياة والمسرح الذي أحبهُ نَجد أنهُ من مواليد بغداد ١٩٦١ دخل عام ١٩٧٩ معهد الفنون الجميلة / بغداد/ قسم الفنون المسرحية/ فرع الإخراج، ثمَ التحق بكلية الفنون الجميلة عام ١٩٩٤ جامعة بغداد وتخرج منها عام ١٩٩٨ وفي عام ١٩٩٥ منح شهادة تقديرية لمشاركته في مهرجان المسرح الجامعي الأول المقام في كلية الفنون الجميلة وشهادة تقديرية لمشاركته في مهرجان منتدى المسرح الحادي عشر كناقد للكثير من الأعمال المسرحية حيث بدأ قاسم مشواره النقدي عام ١٩٨٢ وفي عام ١٩٩٦ منح شهادة تقديرية لمشاركته ناقداً في مهرجان المسرح العراقي الثالث بالكثير من المقالات النقدية وعام ١٩٩٧ منح شهادة تقديرية لمشاركته في مهرجان المسرح العراقي الرابع وفي ١٩٩٨ منح شهادة تقديرية لمشاركته في مهرجان المونودراما الثاني ، كما لا ننسى حضورهِ النقدي حينما عمل في الصفحة الثقافية لجريدة الجمهورية مُحرراً وناقداً مسرحياً للكثير من الأعمال المسرحية ، وبعد هجرته من العراق دخل في أكاديمية هلفرسَم وحصل على دبلوم في مجال تقديم البرامج التلفزيونية وفي عام ٢٠٠٦ منح شهادة تقديرية من قبل وزارة الثقافة والتراث في سلطنة عمان لجهوده المسرحية في إثراء مهرجان المسرح العماني الثاني. كما منح شهادة تقديرية من قبل فرقة مزون في سلطنة عمان التي قدمت نصا من نصوصه والموسوم (رثاء الفجر) والذي فاز بأفضل سينوغرافيا وفي عام ٢٠٠٧ وعام ٢٠٠٨ و ٢٠٠٩ على التوالي منح شهادات تقديرية من قبل المهرجان الوطني للمسرح المحترف الدورة العربية لإثرائه الملتقى العلمي .وفي عام ٢٠٠٨ منح شهادة تقديرية من قبل دائرة الثقافة والإعلام بالشارقة، تقديرا لجهوده المبذولة والعطاء الموصول في الدورة الثامنة عشرة لأيام الشارقة المسرحية. لقد عُرفَ عنهُ غزارته في الإنتاج المسرحي فقد كتب العديد من النصوص المسرحية منها (طقوس وحشية / للروح نوافذ أخرى / رثاء الفجر /الجرافات لا تعرف الحزن . نشرب إذن / جسدي مدن وخرائط / دمي محطات وظل / معكم انتصفت أزمنتي . أحلام موضع منهار / أوهام الغابة / مجرد نفايات / عزف على حراك الجمر / ليس عشاءنا الأخير / رماح الفجيعة مواطن / حوار المصاطب / موتى بلا تأريخ / سيادتكم / حاويات بلا وطن / صدى الصمت / مساكن الخريف / خريف الوحشة / مراسيم الأزمنة / هروب قرص الشمس / تراتيل العيون) ، كما صدرت لهُ الإصدارات الآتية (للروح نوافذ أخرى / رثاء الفجر / الجرافات لا تعرف الحزن ومسرحيات أخرى / طقوس وحشية / سيمفونية الجسد والموت) وغيرها من الكُتب ، أخرج للمسرح العديد من الأعمال المسرحية منها (صرخة في وجه الذات - / الاستثناء والقاعدة / مهرجان الدمى في سوق هرج (تناوبت الكثير من خشبات المسارح العربية والأجنبية على تقديم نصوصه المسرحية، كما تناول العديد من طلبة الدراسات العليا في كليات الفنون الجميلة في العراق تجربة قاسم مطرود المسرحية ، وخلال حياته الإبداعية نال العديد من الجوائز منَها جائزة أفضل نص مونودرامي عن مسرحية الحاوية ١٩٩٦ ، كما كرّم من قبل المركز العراقي للمسرح على جهوده المبذولة وإسهاماته في المسرح العراقي وكرم بدرع الإبداع العربي من قبل ملتقى الرواد والمبدعين العرب وغيرها وقد ترجمت إلى العديد من اللغات العالمية وشارك في الكثير من المهرجانات المسرحية العربية والعالمية ، وبرحيلهِ فجر الجمعة ٢٠١٢/٩/٧ بعد صراع طويل مع المرض ، يكون المسرح العراقي قد خسرَ أحد أبنائه المُخلصين لهُ بصميمية حقيقية.